شيخ الإسلام
تقي الدين أحمد بن تيمية

التوبة

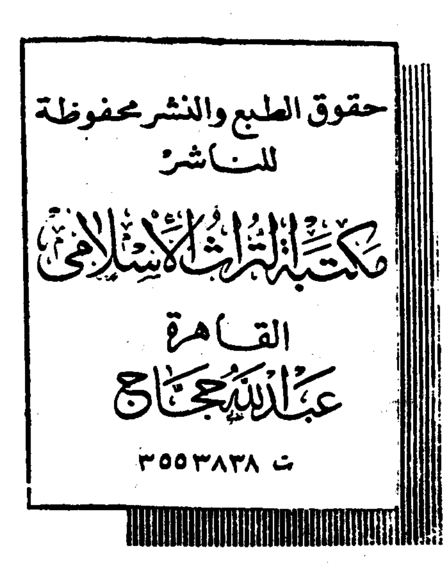


﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

حققها وخرج أحاديثها

عبد الله حجاج

مكتبة التراث الإسلامي
١٤ شارع صفية زغلول - مصر العتيق القاهرة
تليفون ٢٣٨٣٨



حقوق الطبع والنشر محفوظة
للناشر
مكتبة التراث الإسلامي
القاهرة
عبد الله حجاج
ت ٣٥٥٣٨٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد : فان أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة .

يقول الحق تبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره ولا رب سواه :

أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه اذا ذكرنى ، فان ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وان ذكرنى فى ملأ ، ذكرته فى ملأ خير منهم وان تقرب الى شبرا تقربت اليه ذراعا وان تقرب الى ذراعا تقربت اليه باعا وان أتانى يمشى أتيته هرولة (١) .

ويقول النبى المصطفى سيد ولد آدم أجمعين : لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة ومعه راحلته عليها طعامه

(١) رواه البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم فى التوبة .

وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله ، قال أرجع الى مكانى فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فاذا راحلته عنده [١] .

فهذه رسالة فى التوبة لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحرانى رحمه الله وهو غنى عن التعريف نقدمها الى المكتبة الاسلامية فى وقت نحن أحوج ما نكون فيه الى التوبة الصادقة النصوح ، توبة خالصة لله رب العالمين ..

داعين قومنا وعشيرتنا وأهلنا للإقبال على الله مهما كان عظم الذنب ، ولم لا وهو سبحانه القائل (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) [٢] . وقد رغبنا رسولنا الأمين صلوات الله وسلامه عليه فى ذلك بقوله : « ان الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [٣] .

نعوذ بالله أن نذكر به وننساه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات ومسلم فى كتاب التوبة .
(٢) آية ٥٣ الزمر .
(٣) رواه مسلم فى كتاب التوبة .

قال الإمام العلامة شيخ الاسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية رحمه الله :

الحمد لله ، نحمده ، ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له • وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا)[1] صلى الله عليه وسلم تسليما •

قال الله تعالى : (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير • ألا تعبدوا الا الله إننى لكم منه نذير وبشير • وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا الى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير)[2] •

وقال تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور

---

(١) آية ٢٨ سورة الفتح •
(٢) سورة هود : ١ — ٣ •

الرحيم • وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون • واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون) [١] •

وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم)[٢] •

وقال تعالى : (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) [٣] •

وقال تعالى : (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم • وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم) [٤] •

---

(١) سورة الزمر : ٥٣ — ٥٥ .
(٢) سورة التحريم : ٨ .
(٣) سورة النور : ٣١ .
(٤) سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨ .

وقال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنــة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليــه انه هو التواب الرحــيم) [١] •

وقال تعالى فى السورة الأخرى : (وناداهما ربهمــا ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عــدو مبين • قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [٢] •

وقال تعالى : (وعصى آدم ربه فغوى • ثم اجتبــاه ربه فتاب عليه وهدى) [٣] •

وقال تعالى عن نوح أنه قال لقومه : (استغفروا ربكم انه كان غفارا • يرسل السماء عليكم مدرارا) [٤] •

وقال عن نوح : (رب انى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم والا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين) [٥] ، وعن

---

(١) سورة البقرة : ٣٥ — ٣٧ •
(٢) سورة الأعراف : ٢٢ ، ٢٣ •
(٣) سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢ •
(٤) سورة نوح : ١٠ ، ١١ •
(٥) سورة هود : ٤٧ •

هود : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) [١] ، وعن صـالح : (فاستغفروه ثم توبـوا اليـه ان ربى قريب مجيب) [٢] ، وكذلك قال شعيب : (واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربى رحيم ودود) [٣] وقال ابراهيم عليه السـلام : (ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) [٤] وقال : (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) [٥] ، وقال : (وأرنا مناسكنا وتب علينا انك أنت التواب الرحيم) [٦] وقال عن موسى عليه السلام : (فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين • قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفـور الرحيم) [٧] وقال موسى : (رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) [٨] ، وقال موسى : (سبحانك تبت اليك وأنا أول المؤمنين) [٩] .

---

(١) سورة هود : ٥٢ .
(٢) سورة هود : ٦١ .
(٣) سورة هود : ٩٠ .
(٤) سورة ابراهيم : ٤١ .
(٥) سورة الشعراء : ٨٢ .
(٦) سورة البقرة : ١٢٨ .
(٧) سورة القصص : ١٥ ، ١٦ .
(٨) سورة الأعراف : ١٥١ .
(٩) سورة الأعراف : ١٤٣ .

وقال تعالى لموسى : (لا تخف انى لا يخاف لدى المرسلون • الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم)[١] ، وقال موسى : (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون • الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل • الآية)[٢] •

وقال لخاتم الرسل : (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات)[٣] ، وقال : (انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)[٤] •

وقال تعالى : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)[٥] •

وقال : (حم • تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم • غافر

---

(١) سورة النمل : ١٠ ، ١١ •
(٢) سورة الأعراف ١٥٥ – ١٥٧ •
(٣) سورة محمد : ١٩ •
(٤) سورة الفتح : ١ ، ٢ •
(٥) سورة البقرة : ٢٢٢ •

الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول. لا إله إلا هو اليه المصـــير •

وقال تعالى : (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعــلم ما تفعلون • ويستجيب الذين آمنــوا وعملوا الصالحات ويزيدهم) (٢) •

وقال تعالى : (وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عمــلا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم • خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم والله سميع عليم • ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم • وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون • وآخرون مرجون لأمــر الله اما يعذبهم واما يتــوب عليهم والله علــيم حــكيم) (٣) •

وفى صحيح مسلم عن أبى بردة عن الأغر عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا أيها الناس توبوا الى الله ، فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة » • وعن أبى بردة عن

---

(١) سورة غافر : ١ — ٣ •
(٢) سورة الشورى : ٢٥ — ٢٦ •
(٣) سورة التوبة : ١٠٢ — ١٠٦ •

الأغر المزنى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انه ليغان على قلبى ، وانى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » [١].

وقال : « انى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » [٢] .

وقال : « ان الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » [٣] . وقال : « من تاب قبـل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه » [٤] . وقال : « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب اليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ؛ فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ؛ فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك اذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك .. أخطأ من شدة الفرح » [٥] .

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الدعوات باب استغفار النبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم والليلة .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه مسلم عن أبى هريرة ، كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار .

(٥) رواه مسلم عن انس بن مالك كتاب التوبة باب فى الحض على التوبة والفرح بها .

وهذا الحديث متواتر عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ رواه ابن مسعود ، والبراء بن عازب ، والنعمان بن بشير ، وأبو هريرة ، وأنس بن مالك ، ففى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أفرح بتوبة أحدكم من رجل خرج بأرض دوية مهلكة ، معه راحلته عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه ، فأضلها ، فخرج فى طلبها ، حتى اذا أدركه الموت ولم يجدها قال : أرجع الى مكانى الذى أضللتها فيه فأموت فيه فأتى مكانه فغلبته عينه ، فاستيقظ فاذا راحلته عند رأسه عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه » [١] ، وفى السنن أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » [٢] . وقال : « ان العبد اذا أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ؛ وان زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلكم الران الذى ذكر الله : (كلا بل ران على قلبهم ما كانوا يكسبون) » [٣] .

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات باب الدعوة : ومسلم فى كتاب التوبة باب الحض على التوبة والفرح بها واحمد فى مسنده حديث رقم ٣٦٢٧ طبعة المعارف .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والدارى والحاكم فى المستدرك وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاها .

(٣) سورة المطففين : ١٤ .

وعن ابن عباس فى قوله : (إلا اللمم)[١] ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ان تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا ألمـا »[٢] .

وعن ابن عمر قال : إنا كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الغفور » مائة مرة ، رواه أحمد والترمذى وقال : حديث صحيح[٣] .

فصـــل

التوبة نوعان : واجبة ومستحبة .

فالواجبة هى التوبة من ترك مأمور أو فعل محظور . وهذه واجبة على جميع المكلفين ، كما أمرهم الله بذلك فى كتابه وعلى ألسنة رسـله .

والمستحبة هى التوبة من ترك المستحبات وفعل المكروهات . فمن اقتصر على التوبة الأولى كان من الأبرار المقتصدين ، ومن تاب التوبتين كان من السابقين المقربين . ومن لم يأت بالأولى

---

(١) سورة النجم : ٣٢ .
(٢) رواه الترمذى فى كتاب التفسير — تفسير سورة النجم .
(٣) مسند الامام أحمد رقم (٣٢٨/٦) وأبو داود وابن ماجه .

كان من الظالمين : اما الكافرين واما الفاسقين . قال الله تعالى : (وكنتم أزواجا ثلاثة . فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة . وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم) [١] وقال تعالى : (فأما ان كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم . وأما ان كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما ان كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم وتصلية جحيم) [٢] وقال تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) [٣] ، وقال تعالى : (انا هديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا . انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا . ان الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) [٤] وقال : (كلا ان كتاب الفجار لفى سجين) الى قوله : (كلا ان كتاب الأبرار لفى عليين . وما أدراك ما عليون) الى قوله : (ومزاجه من تسنيم . عينا يشرب بها المقربون) [٥] ، قال ابن عباس : تمزج لأصحاب اليمين مزجا ، ويشرب بها المقربون صرفا .

---

(١) سورة الواقعة : ٧ — ١٢ .
(٢) سورة الواقعة : ٨٨ — ٩٤ .
(٣) سورة فاطر : ٣٣ .
(٤) سورة الانسان ٣ — ٦ .
(٥) سورة المطففين : ٢٧ — ٢٨ .

والتوبة رجوع عما تاب منه الى ما تاب اليـــه . فالتوبة المشروعة هى الرجوع الى الله ، والى فعــل ما أمر به وترك ما نهى عنه . وليست التوبة من فعل السيئات فقط كما يظن كثير من الجهال ، لا يتصورون التوبة الا عما يفعله العبد من القبائح كالفواحش والمظالم ، بل التوبة من ترك الحسنات المأمور بهـا أهم من التوبة من فعــل السيئات المنهى عنهــا ، فأكثر الخلق يتركون كثيرا ممــا أمرهم الله به من أقوال القلوب وأعمالهـا وأقوال البدن وأعماله ، وقد لا يعلمون أن ذلك مما أمروا به ، أو يعلمون الحق ولا يتبعونه ، فيكونون اما ضالين بعــدم العلم النافع ، واما مغضوبا عليهم بمعاندة الحق بعد معرفته .

وقد أمر الله عباده المؤمنين أن يدعوه فى كل صلاة بقوله : (اهدنا الصراط المســتقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) [١] ولهذا نزه الله نبيه عن هذين ، فقال تعالى : (والنجم اذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . ان هو الا وحى يوحى) [٢] ، فالضال الذى لا يعلم الحق بل يظن أنه على الحق وهو جاهل به ، كما

---

(١) سورة الفاتحة .
(٢) سورة النجم : ١ — ٤ .

عليه النصارى . قال تعالى : (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل) (١) .

والغاوى الذى يتبع هواه وشهواته مع علمه بأن ذلك خلاف الحق ، كما عليه اليهود . قال تعالى : (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) (٢) وقال تعالى : (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد الى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) الآية (٣) .

وفى الحديث عن النبى ﷺ « ان أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن » (٤) . فان الغى والضلال يجمع جميع سيئات بنى آدم ، فان الانسان كما قال تعالى : « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » (٥) ،

---

(١) سورة المائدة ٧٧ .
(٢) سورة الأعراف : ١٤٦ .
(٣) سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٤) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رواه احمد ورجاله رجال الصحيح .
(٥) سورة الأحزاب : ٧٢ .

فبظلمه يكون غاويا ، وبجهله يكون ضالا ، وكثيرا ما يجمع بين الأمرين فيكون ضالا فى شىء غاويا فى شىء آخر ، اذ هو ظلوم جهول ، ويعاقب على كل من الذنبين بالآخر ، كما قال : « فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا » [١] ، وكما قال : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » [٢] .

كما يثاب المؤمن على الحسنة بحسنة أخرى ، فاذا عمل بعلمه ورثه الله علم ما لم يعلم ، واذا عمل بحسنة دعته الى حسنة أخرى . قال تعالى : (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) [٣] ، وقال تعالى : (ويزيد الله الذين اهتدوا هدى) [٤] ، وقال : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) [٥] ، وقال : (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا . واذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما) [٦] ، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب

(١) سورة البقرة : ١٠ .
(٢) سورة الصف : ٥ .
(٣) سورة محمد : ١٧ .
(٤) سورة مريم : ٧٦ .
(٥) سورة العنكبوت : ٦٩ .
(٦) سورة النساء ٦٦ — ٦٨ .

ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) [١] .

وهو ﷺ ذكر شهوات الغي في البطون والفروج ، كما في الصحيح أنه قال : « من تكفل لي بما بين لحييه وما بين رجليه تكفلت له بالجنة » [٢] . فان هذا يعلم عامة الناس أنه من الذنوب ، لكن يفعلونه اتباعا لشهواتهم .

وأما مضلات الفتن ، فأن يفتن العبد فيضل عن سبيل الله وهو يحسب أنه مهتد ، كما قال : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وانهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون) [٣] ، وقال : (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) [٤] ، وقال : (وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا في تباب) [٥] ، وقال : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) [٦] .

---

(١) سورة الحديد : ٢٨ ، ٢٩ .
(٢) لم أجده بهذا اللفظ ، وفي البخاري : من تضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة .
(٣) سورة الزخرف : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) سورة فاطر : ٨ .
(٥) سورة غافر : ٣٧ .
(٦) سورة الكهف : ١٠٣ ، ١٠٤ .

ولهـذا تأول أصحاب النبى ﷺ هذه الآية فيمن يتعبد بغير شريعة الله التى بعث بها رسوله ، من المشركين وأهـل الكتاب كالرهبان ، وأهل الأهواء من هذه الأمة كالخوارج الذبن أمر النبى ﷺ بقتالهم ، وقال فيهم : « يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الاســلام كما يمرق السهم من الرمية . أينما لقيتموهم قاتلوهم ، فان فى قتلهم أجـرا عند الله لمن قتلهم يوم القيامة » (١) . وذلك لأن هؤلاء خرجوا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين حتى كفروا من خالفهم مثل عثمان وعلى وسائر من تولاهما من المؤمنين ، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فيهم « يقتل أهل الاسلام ، ويدعون أهل الأوثان » (٢) .

واذا اجتمعت شهوات الغى ومضلات الفتن قوى البلاء ، وصار صاحبه مغضوبا عليه ضالا . وهذا يكون كثيرا ، بسبب حب الرئاسة ، والعلو فى الأرض ، كحال فرعون . قال تعالى : « ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ وأصله فى البخارى كتاب المناقب ، باب علامات النبوة عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) جزء من حديث رواه البخارى .

منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين»[١]
فوصفه بالعلو فى الأرض والفساد . وقال فى آخر السورة :
(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض
ولا فسادا والعاقبة للمتقين)[٢] ، ولهذا قال فى حق فرعون :
(وكذلك زين لفرعون سوء عمله)[٣]

وذلك أن حب الرئاسة شهوة خفية ، كما قال شداد بن أوس
رضى الله عنه : « يا بغايا العرب ! يا بغايا العرب ! ان أخوف
ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية » . قيل لأبى داود
السجستانى : ما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة . وحبك
الشىء يعمى ويصم ، فيبقىَ حب ذلك يزين له ما يهواه ، مما
فيه علو نفسه ، ويبغض اليه ضد ذلك ، حتى يجتمع فيه
الاستكبار ، والاختيال ، والحسد الذى فيه بغض نعمة الله
على عباده ، لاسيما من مناظره .

والكبر والحسد هما داءان أهلكا الأولين والآخرين ، وهما
أعظم الذنوب التى بها عصى الله أولا . فان إبليس استكبر وحسد
آدم ، وكذلك ابن آدم الذى قتل أخاه حسد أخاه ؛ ولهذا كان
الكبر ينافى الاسلام ، كما أن الشرك ينافى الاسلام . فان الاسلام

(١) سورة القصص : ٤ .
(٢) سورة القصص : ٨٣ .
(٣) سورة غافر ٣٧ .

هو الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره فهـو مشرك به ، ومن لم يستسلم له فهو مستكبر ، كحال فرعون وملئه • ولذلك قال لهم موسى : (وأن لا تعلو على الله انى آتيكم بسلطان مبين) [١] ، وقال تعالى عن فرعون : « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لا يرجعون » [٢] ، وقال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » [٣] •

ومن أسلم وجهه لله حنيفا فهو المسـلم الذى على ملة ابراهيم الذى قال له ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين •

وهذا الاسلام هو دين الأولين والآخرين من الأنبيـاء وأتباعهم ، كما وصف الله به فى كتابه نوحا وابراهيم وموسى ويوسف وسليمان وغيرهم من النبيين ، مثل قول موسى لقومه : « ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » [٤] ،

وقال تعالى : « انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » وقال نوح عليه السلام :

---

(١) سورة الدخان : ١٩ .
(٢) سورة القصص : ٣٩ .
(٣) سورة النمل : ٤١ .
(٤) سورة يونس : ٨٤ .
(٥) سورة المائدة : ٤٤ .

« فان توليتم فما سألتكم من أحر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » [١] .

وقال يوسف : « توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » [٢] ، وقالت بلقيس : « وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » [٣] .

وليس الغى مختصا بشهوات البطون والفروج فقط ، بل فى شهوات البطون والفروج وشهوات الرئاسة والكبر والعلو غير ذلك . فهو اتباع الهوى وان لم يعتقد أنه هوى ، بخلاف الضال ، فانه يحسب أنه يحسن صنعا ، ولهذا كان إبليس أول الغـــاوين ، كما قال : « فبمـــا أغويتنى لأقعـــدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » [٤] ، وقال : « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . الا عبادك منهم المخلصين » [٥] .

وقال تعالى : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين

---

(١) سورة يونس : ٧٢ .
(٢) سورة يوسف :
(٣) سورة النمل : ٤٤ .
(٤) سورة الأعراف : ١٦ ، ١٧ .
(٥) سورة الحجر : ٣٩ ، ٤٠ .

أغوينـــا أغويناهم كمـــا غوينـــا تبرأنا اليـــك ما كانوا ايانا يعبدون » [١] .

وقال تعالى : « فكبكبوا فيها هم والغاوون . وجنـــود إبليس أجمعون » [٢] .

وانما فى الحديث ما يخاف على هذه الأمة من الغى . وهو شهوات الغى فى البطون والفروج . فأما الغى الذى هو الاستكبار عن اتباع الحق ، فذاك أصل الكفر ، فصاحبه ليس من هذه الأمة ، كإبليس وفرعون وغيرهما . وأما غى شهوات البطون والفروج ، فذاك يكون لأهل الايمان ثم يتوبون ، كما قال : « وعصى آدم ربه فغـــوى . ثم اجتبـــاه ربه فتـــاب عليـــه وهـــدى » [٣] .

وفى السنن والمسند من حديث ليث بن سعد ، عن يزيد بن الهاد ، عن عمرو ، عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ان ابليس قال لربه عز وجل : بعزتك وجلالك لاأبرح أغوى بنى آدم مادامت الأرواح فيهم . فقال له ربه عز وجل : فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى » [٤] .

---

(١) سورة القصص : ٦٢ ، ٦٣ .
(٢) سورة الشعراء : ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) سورة طه : ١٢١ ، ١٢٢ .
(٤) المسند ــ طبعة المكتب الاسلامى ــ (٣/٢٩) .

فصــــل

وجميع ما يتوب العبد منه ، سواء كان فعلا أو تركا ، قد لا يكون كان عالمــا بأنه ينبغى التوبة منه ، وقد يكون كان عالما بذلك فان الانســان كثيرا ما يكون غير عالم بوجوب الشيء أو قبحه ، ثم يتبين له فيما بعد وجوبه أو قبحه ، ويتركه أو يفعله لضعف المقتضى لفعل الواجب ، أو قوة المقتضى لفعل القبيح . لكن هذا لايكاد يقع الا مع ضعف العلم بوجوبه وقبحه ، والا فاذا كمل العلم استلزم الارادة الجازمة فى الطرفين ، ولهــذا قال سبحانه : (انما التوبة للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما) [١] . قال أبو العالية : قال أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم : كل من عصى الله فهو جاهل ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب .

وقال تعالى : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم ســوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم » [٢] .

والمؤمن لايزال يخرج من الظلمات الى النور ، ويزداد هدى ، فيتجدد له من العلم والايمــان ما لم يكن قبل ذلك ،

---

(١) سورة النساء : ١٧ .
(٢) سورة الأنعام : ٥٤ .

فيتوب مما تركه وفعله ، والتوبة تصقل القلب وتجليه مما عرض له من رين الذنوب ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان العبد اذا أذنب نكتت له فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زيد فيها حتى يعلو قلبه ، فذلك الران الذى قال الله : (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) [١] » .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » .

والتوبة من الاعتقادات أعظم من التوبة من الإرادات ، فإن من ترك واجبا أو فعل قبيحا يعتقد وجوبه وقبحه ، كان ذلك الاعتقاد داعياً له إلى فعل الواجب ومانعاً من فعل القبيح ، فلا يكون فى فعله وتركه ثابت الدواعى والصوارف ، بل تكون دواعيه وصوارفه متعارضة . ولهذا يكون الغالب على هذا هو التلوم ، وتكون نفسهم لوامة ، تارة يؤدون الواجب وتارة يتركونه ، يتركون القبيح ، وتارة يفعلونه ، كما تجده فى كثير من فساق القبلة الذين يؤدون الحقوق تارة ويمنعونها أخرى ، ويفعلون السيئات تارة ويتركونها أخرى ، لتعارض الإرادات فى قلوبهم ،

---

(١) سورة المطففين : ١٤ .

إذ معهم أصـــل الإيمان الذى يأمر بفعل الواجب وينهى عن فعل القبيح ، ومعهم من الشبهات والشهوات مــا يدعوهم إلى خلاف ذلك .

وأمــا ما فعله الإنسان مع اعتقاد وجوبه ، وتركه مــع اعتقاد تحريمه ، فهــذا يكون ثابت الدواعى والصوارف ، أعظم من الأول بكثير . وهــذا تحتاج توبته إلى إصلاح اعتقاده أولا وبيــان الحق . وهذا قد يكون أصعب من الأول ، إذ ليس معه داع إلى أن يترك اعتقــاده ، كمــا كان مع الأول داع إلى أن يترك مراده . وقد يكون أســهل إذا كان له غرض فيمــا يخالف موجب الاعتقاد . مثل الآصــار والأغلال التى على أهل الكتاب ، وإذلال المسلمين لهم ، وأخذ الجزية منهم ، مع مخالفة المسلمين له ، فهذا قد يكون داعياً الى أن ينظر فى اعتقاده : هل هو حق أو باطل حتى يتبين له الحق . وقد يكون أيضــاً مرغباً له فى اعتقاد يخرج به من هــذا البلاء .

وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر فى محاسن الإسلام . فللرغبة والرهبة تأثير عظيم فى معاونة الاعتقاد ، كمــا للاعتقاد تأثير عظيم فى الفعل والترك . فكل واحد من العلم والعمل بموجبه ، والإرادة رغبة ورهبة ، والعمل بموجبهــا يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل ، كمــا يقال : من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم .

وفى القرآن شواهد هـذا متعددة ، فى مثل قوله : « ولو أنهم فعلوا مـا يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً * وإذا لآتيناهم من لدنـا أجراً عظيمـاً ❊ ولهدينـاهم صراطـاً مستقيما » (١) •

وفى قوله : « اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشـون به ويغفر لكم والله غفـور رحيـم » (٢) •

فاذا كان الإنسان معاقباً على الاعتقاد كمـا يعاقب الكفار على كفرهم ، كانت التوبة منـه ظاهرة ، كما قال تعـالى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ومـا من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عمـا يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفـور رحيم » (٣) • وقال تعـالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » (٤) •

---

(١) سورة النساء : ٦٦ ، ٦٨
(٢) سورة الحديد : ٢٨
(٣) سورة المائدة : ٧٣ ، ٧٤
(٤) سورة التوبة : ٥ .

فأما الاعتقاد المغفور : كالخطأ والنسيان الذى لا يؤاخذ الله به هذه الأمة ، كما فى قوله : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » (١) • وقد ثبت فى الصحيح أن الله قد فعل ذلك (٢) • وكما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » (٣) • فهذا قذ يقال فى مثله إن قيل إنه يتاب منه فكيف يتاب مما لاذم فيه ولا عقاب ؟ وإن قيل : لا يتاب منه فكيف لا يرجع الإنسان الى الحق اذا تبين له ؟

وجواب ذلك أنه يتاب منه كما يتاب من غيره ، لأن صاحبه قد ترك ما هو مأمور به فى نفس الأمر من العلم وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح • إما لعجزه عن بلوغه وإما لتقصيره فى طلبة •

وأيضاً ، فإنه قد فعل من الاعتقاد وما يتبعه من أعمال القلوب والجوارح ما هو منهى عنه فى نفس الأمر ، لكن سقط عنه النهى لعدم قدرته على معرفة قبحه • والتكليف مشروط

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٦

(٢) معناه فى مسلم كتاب الايمان باب بيان قوله تعالى « ان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه » والمسند طبعة المعارف ج ٣ / ٣٤١— ٣٤٢ رقم ٢٠٧٠ ، ج ٥ ص ٣٠ — ٣١ رقم ٣٠٧١ •

(٣) رواه البخارى فى كتاب الاعتصام ومسلم فى كتاب الاقضية.

بالتمكن من العلم والقدرة ، فلا يكلف العاجز عن العلم ما هو عاجز عنه ، والناسى والمخطىء كذلك . لكن إذا تجدد له قدرة على العلم صار مأموراً بطلبه ، وإذا تجدد له العلم صار مأموراً حينئذ باتباعه . وصار فى هذه الحال مذموماً على ترك ما يقدر عليه من طلب العلم الواجب ، وعلى ترك اتباع ما تبين له من العلم .

وأيضاً ، فما دام غير مستيقن للحق فهو مأمور بطلب العلم الذى يبين له الحق . والمعتقد المخطىء لا يكون مستيقناً قط ، فإن العلم واليقين يجده الإنسان من نفسه كما يجد سائر إدراكاته وحركاته ، مثلما يجد سمعه وبصره وشمه وذوقه ، فهو إذا رأى الشىء يقيناً يعلم أنه رآه ، وإذا علمه يقيناً يعلم أنه علمه . وإذا لم يكن مستبقنا فانه لا يجد ما يجده العالم ، كما إذا لم يستيقن رؤيته لم يجد ما يجده الرائى ، وإنما يكون عنده ظن ونوع إرادة توجب اعتقاده .

هذا هو الذى يجده بنو آدم فى نفوسهم كما قال سبحانه : « إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى) [١] واذا كان الإنسان مأمورا بطلب العلم الذى يحتاج إليه بحسب إمكانه وهو إذا لم يجد العلم اليقينى

(١) سورة النجم : ٢٣

يعلم أنه لم يجد العلم فهو مأمور بالطلب والاجتهاد ، فإن ترك ما أمر به كان مستحقاً للذم والعقاب على ذلك فإذا تبين له الحق وعلمه ، وعلم أنه كان جاهلا به معتقداً غير الحق كان تائباً ، بمعنى أنه رجع من الباطل إلى الحق ، وإن كان الله قد عفى عنه ما رجع عنه لعجزه إذ ذاك . وكان أيضاً تائباً مما حصل فيه أولا من تفريط فى طلب الحق ، فكثير من خطأ بنى آدم من تفريطهم فى طلب الحق لا من العجز التام . وكان أيضاً تائباً من اتباع هواه أولا بغير هدى الله ، فإن أكثر ما يحمل الإنسان على اتباع الظن المخطىء هو هواه ، كما قال تعالى : (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) . وليس توبة هذا وحاله كحال من كان عاجزاً عن الفعل ثم قدر عليه كالمريض الذى لا يطيق القيام إذا أقدر عليه بعد ذلك ، وكالخائف إذا أمن ، وكالمصلى بتيمم ، ونحو هؤلاء .

وذلك أن هؤلاء إذا كانت إرادتهم للفعل المأمور به على وجه الكمال ثابتة فى قلوبهم ، وقد عملوا ما يقدورن عليه من المراد ، وإنما تركوا تمامه لعجزهم — كان لهم مثل ثواب الفاعل ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه عن أبى موسى : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » (١) . وفى الصحيح عن

النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن بالمدينه لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم ، حبسهم العذر » (٢) •

وقد قال تعالى : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) (٣) فهؤلاء لهم علم بالمأمور به الكامل ، واعتقاد الأمر به ، وإرادة فعله بحسب الإمكان ، وهــذا كله من أدائهم للمأمور به ، فاذا تجددت لهم قدرة لم تتجدد رغبة فى الفعل الكامل ، وإنما يتجدد العمل بتلك الرغبة المتقدمة وإن كان لابد لهــذا الفعل من إرادة تخصه ، ولم يكن هؤلاء مأمورين بذلك إلا فى هذه الحال فقط ، كما تؤمر المرأة بالصلاة عند انقضاء الحيض ، وكما يؤمر الصبى بما يجب عليه عند بلوغه • وكمــا يؤمر المزكى بالزكاة بعد ملك النصاب والحول والمصلى بالصلاة بعد دخول الوقت •

وأما الناسى والمخطىء فانه لم يكن قد أتى بالعلم والاعتقاد والإرادة فلا يثاب على هذه الأمور التى لم تكن له ، بل يكون الذى حصل له ذلك أفضل منه بها ، كما قال تعالى : (هل يستوى

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجهاد
(٢) رواه البخارى فى كتاب الجهاد ومسلم فى كتاب الامارة
(٣) سورة النساء : ٩٥

الذين يعلمون والذين لا يعلمون) (١) ، فنفى المساواة بين الذى يعلم والذى لا يعلم مطلقاً ، لم يستثن المعذور كما استثنى فى تفضيل المجاهد على القاعد المعذور .

وكذلك سائر ما فى القرآن من نحو هذا ، كقوله : (وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات) (٢) وقوله : (مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا) (٣) ، وقوله (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) (٤) .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر »(٥) ، لم يجعل أجر العاجز على إصابة الصواب مع اجتهاد كأجور القادر عليه . كما جعل للمريض والمسافر مثل

---

(١) سورة الزمر : ٩

(٢) سورة فاطر : ١٩ — ٢٢

(٣) سورة هود : ٢٤

(٤) سورة الانعام : ١٢٢

(٥) لفظ مسلم (اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم اصاب فله اجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله اجر) عن عمرو بن العاص رقم (١٧١٦) .

ثواب الصحيح المقيم ، كما جعل المعذور من القاعدين عن الجهاد الذى تمت رغبته بمنزلة المجاهد ، فان الأصل هو القلب ، والبدن تابع • فالمستويان فى عمل القلب إذا فعل كل منهما بقدر بدنه متماثلان ، بخلاف المتفاضلين فى عمل القلب : علمه وإرادته وما يتبع ذلك ، فانهما لا يتماثلان ولهذا يعاقب العبد على ما تركه من الإيمان بقلبه •

وإن قيل : إن ذلك تكليف مالا يطاق ، ولا يعاقب على ما عجز عنه بدنه باتفاق المسلمين ، فهو يعاقب على ترك ما أمر بارادته وفعله وإن كانت نفسه لا تريده ولا تحبه ، وليس هو معاقباً على ترك ما عجز منه بدنه ، كجهاد المقعد والأعمى ونحوهما •ونفسه إنما لا تعلم الحق الذى بعث الله به رسله ولا تريدهلتفريطه وتعديه ، اذ آيات ذلك الحق ظاهرة وهو محبوب ، وقد خلق الله كل مولود على الفطرة التى تتضمن القوة على معرفة هذا الحق وعلى محبته ، ولكن غير فطرته بما يقلده عن غيره ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق عليه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟! » (١) • واذا قد خلق على الصحة والسلامة • فهو

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى كتاب القدر باختلاف يسير فى الالفاظ عن أبى هريرة رضى الله عنه •

يستحق العقوبة على ما غيره من خلق الله بتفريطه وعدوانه • لاتباعه الظن وما تهوى الأنفس •

وقد بعث الله الرسل مبشرين ومنذريين ، وقال سبحانه : (ومـا كنا معذبين حتى نبعث رسولا) (١) وهـذا مما يظهر به الفرق بين المجتهد المخطيء والناسى من هـذه الأمة فى المسائل الخبرية والعملية وبين المخطيء من الكفار والمشركين وأهـل الكتاب الذى بلغته الرسالة ، إذا قيل إنه غير معاند للحق ، فان ذاك لا يكون خطؤه إلا لتفريطه وعدوانه ، لا يتصور أن يجتهد فيكون مخطئاً فى الإيمان بالرسول ، بل متى اجتهد — والاجتهاد استفراغ الوسع فى طلب العلم بذلك — كان مصيباً للعلم به بـلا ريب •

فان دلائل ما جاء به الرسول ودواعيه فى نهاية الكمـال والتمام الذى يشمل كل من بلغته ، ولا يترك أحد قط اتبـاع الرسول إلا لتفريط وعدوان فيستحق العقاب ، بخلاف كثير من تفصيل ما جاء به ، فانه قد يعزب علمـه عن كثير من خواص الأمة وعوامها ، بحيث لا يكونون فى ترك معرفتـه مقصرين ولا مفرطين فلا يعاقبون بتركه ، مع أنهم قد آمنـوا به إيماناً مجملا فى إيمانهم بما جاء به الرسل فهم آمنوا به مجملا ومعهم

(١) سورة الاسراء : ١٥

أصول الإيمان به ، كمـــا أن الفاسق معه الدواعى لفعل المأمور وترك المحظور •

فلهذا كان المخطىء بالتأويل من هذه الأمة ، والفاسق بالفعل مع صحة الاعتقاد ، كل منهما محسناً من وجه ، وليس واحد منهما كالكفار من المشركين وأهل الكتـــاب ، وإن كانوا فى ذلك على درجات متفاوتة ، بل كل منهما ليس تاركا لمـــا أمر به من الاعتقاد والعمل مطلقاً ولا فاعلا لضده مطلقاً ، بل المتأول قد آمن إيماناً عاماً بكل ما جاء به الرسول ، واستسلم لكل ما أمره به • وهذا الإيمان والإسلام يتناول ما جهله ، ويدعوه إلى الإيمان والإسلام المفصل إذا علمه ، لكن عارض ذلك من جهله وظلمه لنفســـه ما قد يكون مغفوراً له وقد يكون معذباً به •

ولذلك الفاجر بالعمل معه من الإيمان بقبح الفعل وبغضه ما هو داع له إلى فعل الأصل المأمور به وداع له إلى تركه ، لكن عارض ذلك من هواه مـــا منع كمال طاعته ، بخلاف المكذب للرسول صلى الله عليه وسلم والكافر به ، فانه لم يصـــدق بالحق ولم يستسلم له لا جملة ولا تفصيلا ، لكن قد يكون ما اتبعه من ظنه وهواه موجباً لبعض ما جاء به الرسول ومانعاً له من النظر فيه بحيث لا يستطيع مع ذلك أن يسمع به ، فهـــذا واقع ، كما قال سبحانه : (وعرضنا جهنم يومئـــذ للكافرين

عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً) (١) وقال تعالى : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين * الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون * أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) (٢) .

لكن عدم هذه الاستطاعة كان بتفريطه وعدوانه ، ومن كان تركه للمأمور بذنب منه ، أو ضرورته إلى المحظور بذنب منه — لم يكن ذلك مانعاً من ذمه وعقابه ، ومن هذا قوله سبحانه : (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) (٣) ، وقال تعالى (وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) (٤) وقال : (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) (٥) .

وبهذا يظهر ضعف قول طائفة من المتكلمين الذين يقولون :

---

(١) سورة الكهف : ١٠٠ ، ١٠١
(٢) سورة هود : ١٨ — ٢
(٣) سورة الانعام — آية ١١٠
(٤) سورة البقرة : ٨٨
(٥) سورة النساء : ١٥٥

الخطأ والإثم يتلازمان . ثم منهم من يقول : كل مجتهد فى المسائل العملية مصيب ، كما يقوله كثير من المعتزلة والأشعرية . ومنهم من يقول : بل فيها مخطىء ، والمخطىء آثم ، كما يقوله المريسى وغيره ، وذلك أنهم اعتقدوا أنه حيث يكون مخطئاً يكون تاركاً لما وجب عليه .

ثم قال الأولون : فاذا لم يكن تاركاً للمأمور به ، فلا يكون لله فى المسألة حكم معين ، أولا يكون الحكم المنصوص حكماً فى حقه إذا لم يتمكن من معرفته .

وقال الآخرون : بل إذا كان مخطئاً يكون تاركاً للمأمور به فيكون آثماً .

والتحقيق أنه مأمور به أمراً مطلقاً ، لكن شرط الإثم بمنزلة التمكن من معرفته ، فاذا لم يتمكن من معرفته لا يكون شرط الإثم موجوداً فيه . ولكن ذلك لا ينفى أن يكون هو المأمور به ، وهو الذى يحبه الله ويرضاه ، ويثبت فاعله إذا فعله . وإنما سقط عن بعض العباد لفوات الشرط فى حقه خاصة ، وحينئذ يكون النزاع فى بعض المواضيع نزاعاً لفظياً .

ولهذا اختلف العلماء : هل هو مصيب فى اجتهاده وإن كان مخطئاً فى نفس الأمر ؟ أو هو مخطىء فى اجتهاده وفى نفس الأمر ؟ على قولين ذكرهما القاضى روايتين عن أحمد . وذلك أن

الخطأ فى الاجتهاد قد يعنى به القصور والتقصير ، وقد لا يعنى به إلا التقصير إذ العاجز عن معرفة الحكم الذى لله عاجز قاصر ، ليس بمقتصر ولا مفرط فيما بعد عليه . فاذا قال : أخطأ فى اجتهاده ، أراد أخطأ فى استدلاله الموصل له إلى الحق ، إذ لو أصابه لأصاب الحق ، لكنه لم يكن قادراً على هذا الاستدلال فلا يعاقب على تركه .

ومن قال : لم يخطىء فى اجتهاده ، أراد أنه لم يخطىء فيما قدر عليه من الاجتهاد ، بل فعله على وجهه ، لكن لم يكن مقدوره من الاجتهاد كافياً فى إدراك المطلوب فى نفس الأمر .

ومثل هذا النزاع أن يقال : هل فعل ما أمر به أو لم يفعل ما أمر به ؟ فالمأمور به فى نفس الأمر لم يفعله ، وأما المأمور به فى حقه من العمل الممكن فقد فعله . ولذلك إذا اشتبهت أخته بأجنبية ، هل يقال : الحرام — فى نفس الأمر — واحدة ، أم الاثنتان محرمتان ؟ على القولين بهذا الاعتبار .

فصل

فأما التوبة من الحسنات فلا تجوز عند أحد من المسلمين ، بل من تاب من الحسنات ، مع علمه بأنه تاب من الحسنات ، فهو إما كافر وإما فاسق ، وإن لم يعلم أنه تاب من الحسنات فهو جاهل ضال وذلك أن الحسنات هى الإيمان والعمل الصالح ، فالتوبة من الايمان هى الرجوع عنه ، والرجوع عنه ردة ،

وذلك كفر . والتوبة من الأعمال الصالحة رجوع عما أمر الله به ، وذلك فسوق أو معصية .

والله تعالى حبب إلى المؤمنين الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان . فكل حسنة يفعلها العبد إما واجبة وإما مستحبة . والتوبة تتضمن الندم على ما مضى ، والعزم على ألا يعود الى مثله فى المستقبل . والندم يتضمن ثلاثة أشياء : اعتقاد قبح ما ندم عليه ، وبغضه وكراهته ، وألم يلحقه عليه . فمن اعتقد قبح ما أمر الله به أمر إيجاب أو استحباب ، أو أبغض ذلك وكرهه بحيث يتألم على فعله ، ويتأذى بوجوده ، ففيه من النفاق بحسب ذلك . وهو إما نفاق أكبر يخرجه من أصل الإيمان ، وإما نفاق أصغر يخرجه من كماله الواجب عليه . قال تعالى : « ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم » (١) ، وقال تعالى : « وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » (٢) وقال تعالى : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » (٣) .

---

(١) سورة محمد : ٢٨ .
(٢) سورة التوبة ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) سورة الاسراء : ٨٢ .

بل إذا علم العبد أن هـذا الفعل قد أمره الله به وأحبه ، فاعتقد هو أن ذلك ليس ممـا أمر الله به وأبغضه وكرهه ، فهو كافر بلا ريب • فمثل هـذه التوبة عن الحسنات هى ردة محضة عن الإيمان وكفر بالإيمان : « ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين » (١) •

فإطلاق القول بأن الحسنات يتاب منهـا هو كفر يجب أن يستتاب صاحبه ، إذ معناه أنه يؤمر بالرجوع عن الحسنات ، واعتقاد أن الرجوع عن الحسنات يقرب إلى الله ، وهذا كفر بلا ريب • ثم إن هذه التوبة متناقضة ممتنعة فى نفسها ، فإن التائب من الحسنات إن اعتقد أن هذه التوبة حسنة ، فعليه أن يتوب منها ، فتكون باطلة فلا يكون قد تاب من الحسنات • وإن اعتقد أنهـا سيئة كان مقرا بأن هـذه التوبة محرمة ، فقد التزم أحد أمرين : إما أنه لم يتب من الحسنات ، أو تاب توبة محرمة • وهذا اشتبه عليه حال السابقين المقربين الذين يتوبون من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن من ترك المستحبات ، أو فعل المكروهات غير المحرمات ، فظن أنهم تابوا ممـا فعلوه من الحسنات وتركوه من المحرمات ، فانهم لو تابوا من ذلك لكانوا مرتدين إما عن أصل الإيمان وإما عن كماله • وإنمـا هى توبة عمـا تركوه من مستحب وفعلـوه من

---

(١) سورة المائدة ــ ٥ .

مكروه ، مثل أن يكون العبد يصلى صلاة مجزئة غير كاملة ، فتبلغه صلاة النبى صلى الله عليه وسلم المستحبة ، فيصلى كصلاته ويندم على ما كان يفعله من الصلاة الناقصة .

فهو لا يتوب مما فعله من الحسن ، وإنما يتوب مما تركه من الحسن ، ولهذا ينسب نفسه الى اتفريط بما أضاعه من الحسنات . وكذلك إذا سمع فضائل الأعمال المستحبة وما وعد الله أصحابها من علو الدرجات ، فيندم على ما فرط من ذلك ، ويعزم على فعلها فهو توبة مما تركه من الحسنات .

وكذلك لو كان يصبر على المكاره ، مثل الفقر والمرض وخوف العدو ، من غير رضى بذلك ، فبلغه مقام أهل الرضا ، وأنه أعلى من الصبر الذى لارضا معه ، وأن هؤلاء يستحقون رضوان الله عليهم ، وأن أول من يدعى الى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء ، وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عباس : « ان استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، وإن لم تستطع فان فى الصبر على ما يكره خيراً كثيراً » (١) .

فهذا يتوب من ترك الرضا ، لا من نفس ما أمر به من

---

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريجه للايحاء رواه الترمذى من حديث ابن عباس ، ولم أهتد لموضعه .

الصبر ،فان الصبر يبقى مع الرضا ، لابد من الصبر فى الحالين ، لكن تذهب مرارة الكراهة بالرضـــا ، وتلك المرارة ليست من الحسنات المأمور بهـــا ، ولا هى داخلة أيضاً فى حد الصـــبر المأمور به ، بل الصبر قد تكون معه مرارة ، وقد لا تكون •

ومن اعتقد أن الصبر لا يكون إلا مع مرارة ، وأنه ضد الرضا فقد تكلم بعرف بعض المتأخرين ، وليس ذاك عرف الكتاب والسنة ، فان الله تعالى أمرنا بالصبر وأثنى على أصحابه فى أكثر من تسعين موضعاً من كتابه •

والله تعالى لا يأمر بمـــا هو مكروه أو ترك الأفضـــل . ولا يكون ذلك إلا بفعل الحسن ، لا بترك الأحسن •

وبهذا يعرف قول من قال : « حســـنات الأبرار سيئات المقربين » مع أن هـــذا اللفظ ليس محفوظا عمن قوله حجة ، لا عن النبى ﷺ ولا عن أحد من سلف الأمة وأئمتهـــا • وإنما هو كلام • • • وله معنى صحيح ، وقد يحمل على معنى فاسد •

أما معناه الصحيح فوجهان :

أحدهما : أن الأبرار يقتصرون على أداء الواجبات وترك المحرمات ، وهـــذا الاقتصار سيئة فى طريق المقربين • ومعنى كونه ســـيئة أن يخرج صاحبه عن مقـــام المقربين ، فيحرم درجاتهم ، وذلك ممـــا يسوء من يريد أن يكون من المقربين •

فكل من أحب شيئاً وطلبه إذا فاته محبوبه ومطلوبه ساءه ذلك • فالمقربون يتوبون من الاقتصار على الواجبات ، لا يتوبون من نفس الحسنات التى يعمل مثلهـا الأبرار ، بل يتوبون من الاقتصار عليها • وفرق بين التوبة من فعل الحسن وبين التوبة من ترك الأحسن والاقتصار على الحسن •

الثانى : أن العبد قد يؤمر بفعل يكون حسناً منه ، إمـا واجباً ، وإمـا مستحباً ، لأن ذلك مبلغ علمه وقدرته • ومن يكون أعلم منه وأقدر لا يؤمر بذلك ، بل يؤمر بما هو أعلى منه ، فلو فعل هـذا ما فعله الأول كان ذلك سيئة •

مثال ذلك أن العامى يؤمر بمسألة العلماء المأمونين على الإسلام والرجوع إليهم بحسب قوة إدراكه ، وإن كان فى ذلك تقليد لهم ، إذ لا يؤمر العبد إلا بما يقدر عليه • وأما العلمـاء القادرون على معرفة الكتاب والسنة والاستدلال بهمـا فلـو تركوا ذلك وأتوا بما يؤمر به العامى لكانوا مسيئين بذلك •

وهـذا كما يؤمر المريض أن يصلى قائماً ، فإن لم يستطع فقاعداً ، فان لم يستطع فعلى جنب • وكما يؤمر المسافر أن يصلى الظهر والعصر والعشاء ركعتين فى السفر ، وهـذا لو فعله المقيم لكان مسيئاً تاركاً للفرض ، بل فرضه أربع ركعات • فان المرض والسفر لا ينقص العبد عن كونه مقرباً إذا كان ذلك حاله فى الإقامة ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله

عليه وسلم أنه قال : « اذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل وهو صحيح مقيم » (١) ٠

بخلاف العلم والجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال والمسابقة إلى الخيرات * فان الله يقول : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٢) ، ويقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم القاعدين على درجة وكلا وعد الله الحسنى » (٣) ، ويقول فى كتابه : « لا يستوى منكم من أنفق قبل الفتح وقاتل أولئك اعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى » (٤) ، ويقول : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين ٠ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ٠ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ٠ خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم » (٥) ٠

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الجهاد ٠
(٢) سورة المجادلة : ١١ ٠
(٣) سورة النساء : ٩٥ ٠
(٤) سورة الحديد : ١٠ ٠
(٥) سورة التوبة : ١٩ — ٢٢ ٠

وكذلك فى الصحيحين عن أبى سـعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تسبوا أصحابى ، فو الذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً مع ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » (١) . وقال : « خير القرون قرن الذين بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » (٢) .

فالعلم والجهاد كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومـا يدخل فى ذلك هو واجب على الكفاية من المؤمنين . فمن قام به كان أفضل ممن لم يقم به ، وإذا ترك ذاك من تعين عليه كان مذنباً مسيئاً ، فيكون ذلك سيئة له إذا تركه ، وحسنة مفضلة له على غيره إذا فعله . وإن كان القيـام بالواجبات بدون ذلك من حسنات من لم يكن قادراً على ذلك . فحسنات هؤلاء الأبرار — وهى الاقتصار على ذلك — سيئات أولئك المقربين .

وكذلك السابقون الأولون من هـذه الأمة فيمـا فعلوه من الجهاد والهجرة لو تركوا ذلك واقتصروا على ما دونه كان ذلك من أعظم سيئاتهم . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » (٣)

---

(١) رواه البخارى فى كتـاب « أصحاب النبى » ومسلم فى فضائل الصحابة وابو داود فى السنة .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة .

(٣) رواه البخارى ومسلم وهو فى سنن النسـائى ومسند أحمد مع اختلاف فى اللفظ .

كان الاقتصار على مجرد ذلك من حسنات الأبرار الذين ليسوا من أولئك السابقين •

وكذلك المرسلون لهم مأمورات لو تركوها كان ذلك سيئات • وإن كان فعل ما دونها حسنات لغيرهم ممن لم يؤمر بذلك ، إلى نظائر ذلك مما يؤثر فيه العبد بفعل لم يؤمر به من هودونه ، فيكون ترك ذلك سيئة فى حقه ، وهو من المقربين إذا فعله ، ويكون فعل ما دون ذلك حسنات لمن دونه •

وذلك أن الإنسان يفضل على غيره إما بفعل مستحب فى حقهما وإما بما يؤمر به أحدهما دون الآخر فيفعله ، وتخصيصه بفعله قد يكون لقدرته وقد يكون لامتحانه بسببه ، كمن له والدان فإنه يؤمر ببرهما ويكون بذلك أفضل من لم يعمل مثل عمله • كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حق المتصدقين بفضول أموالهم المشاركين لغيرهم فى الأعمال البدنية : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء »فهؤلاء المفضلون الاقتصار على ما دون هذه الأمور سيئات فى حقهم وحسنات لمن ليس مثلهم فى ذلك •

فهذان الوجهان كلاهما معنى صحيح لقول القائل : « حسنات الأبرار سيئات المقربين » •

وأما المعنى الفاسد فأن يظن الظان أن الحسنات التى أمر الله بها أمراً عاما يدخل فيه الأبرار ويكون سيئات للمقربين ؛

مثل من يظن أن الصلوات الخمس ومحبة الله ورسوله والتوكل علي الله وإخلاص الدين لله ونحو ذلك هى سيئات فى حق المقربين. فهـذا قول فاسد غلافيه قوم من الزنادقة المنـافقين المنتسبين إلى العلماء والعباد ، فزعموا أنهم يحلون إلى مقـام المقربين الذين لا يؤمرون بمـا يؤمر به عموم المؤمنين من الواجبات ، ولا يحرم عليهم مـا يحرم على عـموم المؤمنين من المحرمات كالزنا والخمر والميسر .

وكذلك زعم قوم فى أحوال القلوب التى يؤمر بها جميع المؤمنين أن المقربين لا تكون هذه حسنات فى حقهم .

وكلا هذين من أخبث الأقوال وأفسدها .

وإنما قلنـا : إنِ التائب من الحسنات — إن علم أنهـا حسنات — وتاب منها فقد أذنب إما بكفر أو فسوق أو معصية . وإن لم يعلم أنها حسنات فهو ضال جاهل ، لأنه إذا تاب ممـا يسمى حسنة ،وكان حسنة فى الشريعة حقيقة قد أمر الله بهـا ، راجع عن طاعة الله التى هى طاعته وهى حسنة . والرجوع عن طاعة الله ودينه لا يخرج عن أن يكون ردة عن أصل الدين فيكون كفراً مغلظاً ، وإما عن كماله . هذا لو كان الرجوع بنفس الترك ، فإن ترك الإيمان كفر ، وترك الواجبات إما فسق وإما معصية . وترك المستحبات المتطوعة يؤخر درجته هـذا إذا كان تركـاً محضاً ، فأما إذا اعتقد مع ذلك أن الحسنات التى يحبها الله

ورسوله مما يتاب منها بحيث يندم العبد عليها ، فيعتقد أن تركها خير من فعلها ، أو أنها ليست مأموراً بهـا ، أو أنهـا لا تقرب إلى الله أو لا تنفع عنده ، أو أبغضها وكرهها ، ورجع عنها وتألم من فعلها متديناً بذلك — فهذا كافر مرتد تجب استتابته بلا نزاع بين العلمـاء • وهـذا هو مسمى التوبة • فعلم أن القول بأن الحسنات يتاب منهـا كفر محض •

وأما إن لم يعلم أنها حسنات ، بل تاب مما كان يسميه — أو غيره — حسنات ، أو كان حسنة فى الشريعة ولم يعلم العبد أنه حسنة بل ظن أنه سيئة ، أو كان سيئة منهياً عنها ، واعتقد المرء أنه حسنة مأمور بها — فهو ضال جاهل ، وهذا عليه أن يتوب من هذا الاعتقاد والعمل الذى كان يعتقد أنه حسنة ، كما يتوب كل من الكفار وأهل الأهـواء المشركين وأهل الكتـاب ، والمبتدعة كالخوارج والروافض والقدرية والجهمية وغيرهم • فإن هؤلاء يتوبون مما كانوا يظنونه حسـنات ، لا يتوبون مما فى الشريعة حسنات ، ولا يطلقون القول إنا نتوب من الحسنات ، ولا أن التوبة من الحسنات فعل المقربين ، ولا أن التوبة من الحسنات مشروع للسابقين ، ولا أن الذى تبنا منه كان حسنات • ولكن يقولون : نتوب مما كنا نظن أنه حسنات وليس بحسنات ، كما قيل :

اذا محاسـنى اللاتى أدل بهـا
كانت ذنوبى فقل لى كيف أعتـذر

وكذلك يتوب المرء مما يعده حسنات له وهو مقصر فى فعله . أو خائف من تقصيره فى فعله ، كما قال تعالى : « والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون » (١) . وقد روى عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله : أهو الرجل يزنى ويسرق ويشرب الخمر ويخاف ؟ فقال : « لا يابنت الصديق . ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف ألا يتقبل منه » (٢) .

وهذا لأن الله تعالى يقول فى كتابه : « إنما يتقبل الله من المتقين » (٣) ، أى من الذين يتقونه فى العمل .

والتقوى فى العمل بشيئين : أحدهما إخلاصه لله ، وهو أن يريد به وجه الله لا يشرك بعبادة ربه أحداً . والثانى : أن يكون مما أمره الله به وأحبه ، فيكون موافقاً للشريعة ، لا من الدين الذى شرعه من لم يأذن الله له ، وهذا كما قال الفضل بن عياض فى قوله : « ليبلوكم أيكم أحسن عملا»(٤) قال : أخلصه وأصوبه. وذلك أن العمل اذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، واذا

(١) سورة المؤمنون : ٦٠ .
(٢) رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب التوقى على العمل حديث رقم ٤١٩٨ .
(٣) سورة المائدة : ٢٧ .
(٤) سورة هود : ٧ .

كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً • والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة •

فالسعيد يخاف فى أعماله ألا يكون صادقاً فى إخلاصه الدين لله • أو أن لا تكون موافقة لما أمر الله به على لسان رسوله • ولهذا كان السلف يخافون النفاق على أنفسهم ، فذكر البخارى عن أبى العالية قال : « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ ، كلهم يخاف النفاق على نفسه » (١) • ولهذا كانوا يستثنون فيقول أحدهم : أنا مؤمن إن شاء الله ، ومثل هؤلاء يستغفرون الله مما علموه أو لم يعلموه من التقصير والتعدى ويتوبون من ذلك •

وهذا مشروع للأنبياء والمؤمنين • كان النبى ﷺ يستغفر بعد الصلاة ثلاثاً(٢)• وقال تعالى : « والمستغفرون بالأسحار »(٣)• قالوا : كانوا يحيون الليل صلاة ثم يقعدون فى السحر يستغفرون ، فيختمون قيام الليل بالاستغفار وقال تعالى : « فاذا أفتضم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض

(١) صحيح البخارى ، كتاب الايمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر .

(٢) رواه مسلم فى كتاب المساجد باب استحباب للذكر بعد الصلاة عن ثوبان رضى الله عنه .

(٣) سورة آل عمران : ١٧ .

الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » (١) ، وقال تعالى : « اذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » (٢) .

فإن قيل : قد قال تعالى : « وتوبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٣) ، ومن المؤمنين من لا ذنب له ، فيكون أمره بالتوبة أمراً بالتوبة من الحسنات ، وكذلك توبة الأنبياء وهم معصومون ؟

قيل : هذا من أعظم الفرية ، لم تأت الشريعة بالتوبة من الحسنات ، وهى ما أمر به من طاعته وطاعة أنبيائه . وليس فى المؤمنين إلا من له ذنب من ترك مأمور أو فعل محظور ، كما قال ﷺ : « كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .

وقد قال تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين . ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » (٤) .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٨ ، ١٩٩ .
(٢) سورة النصر .
(٣) سورة النور : ٣١ .
(٤) سورة الزمر : ٣٣ — ٣٥ .

وقال تعـالى : « أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصـحاب الجنة وعـد الصدق الذى كانوا يوعـدون » (١) .

وأصل هـذه المقالة ، وهو دعـوى العصـمة فى المؤمنين وما يشبه ذلك ، هو من أقوال الغالية من النصارى وغالية هـذه الأمـة ، وابتدعها فى الملتين منافقوها .

قال الله تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه » (٢) ، وقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » (٣) ، وقال تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحـكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخـذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون»(٤).

وقال تعالى : « وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى

---

(١) سورة الأحقاف : ١٦ .
(٢) سورة النساء : ١٧١ .
(٣) سورة المائدة : ٧٧ .
(٤) سورة آل عمران : ٧٩ ، ٨٠ .

المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون * اتخــذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحــداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » (١) .

وقد روى فى حديث عدى بن حاتم عن النبى ﷺ قــال : قلت يا رسول الله : ما عبدوهم . قال : أحلوا الحرام فأطاعوهم ، وحرموا عليهم الحــلال فأطاعوهم ، فتلك عبادتهم إياهم » .

وهذا الغلو الذى فى النصارى حتى اتخــذوا المسيح وأمه إلهين من دون الله واتخــذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله — قد ذكروا أن أول من ابتدعه لهم بولص الذى كان يهودياً واتبع المسيح نفاقاً ليلبس على النصارى دينهم ، فأحــدث لهم مقالات غالية ، وكثرت البــدع فى النصــارى : فى اعتقاداتهم وعباداتهم ، كما قال تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » (٢) .

وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية فى الاسلام من جهة بعض من كان قد دخل فى الاسلام وانتحل التشيع . وقيل : أول من

---

(١) سورة التوبة : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة الحــديد : ٣٧ .

أظهرْ ذلك عبد الله بن سبأ الذى كان يهوديا فأسلم ، وكان ممن أقام الفتنة على عثمان ، ثم أظهر موالاة على • وهو من ابتدع الغلو فى على ، حتى ظهر فى زمانه من ادعى فيه الإلهية وسجدوا له لما خرج من باب مسجد كندة ، فأمر على رضى الله عنه بتحريقهم بالنار بعد أن أجلهم ثلاثة أيام • وفى الصحيح أن ابن عباس بلغه أن علياً حرق زنادقة فقال : لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى النبى ﷺ أن يعذب بعذاب الله ، ولضربت رقابهم بالسيف ، لقول النبى ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » (١) • قالوا : وهم هؤلاء ، وقد رووا قصتهم مستوفاة • ورووا أنه أظهر أيضاً سب أبى بكر وعمر حتى طلب على أن يقتله فهرب منه • ولما بلغ علياً أن أقواماً يفضلونه على أبى بكر وعمر قال : « لا أوتى بأحد يفضلنى على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى » تحقيقاً لما رواه البخارى فى صحيحه عن محمد بن الحنفية أنه سأل أباه : من خير الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : أبو بكر • قال : ثم من ؟ قال ثم عمر • وقد روى ذلك عن على من نحو ثمانين طريقاً ، وهو متواتر عنه • وروى هذا المعنى عنه من وجوه مرفوعاً الى النبى ﷺ ، كما رواه الترمذى ورواه الدارقطنى فى كتاب « ثناء الصحابة على القرابة وثناء القرابة على الصحابة » •

---

(١) رواه البخارى عن ابن عباس فى كتاب استتابة المرتدين وباب حكم المرتد والمرتدة •

وحينئذ ابتدع القول بأن علياً إمام منصوص على إمامته ، وابتدع أيضاً القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقده المؤمنون فى عصمة الأنبياء ، بل ابتدع القول بنبوته ، وحدث بازاء هؤلاء من اعتقد كفره وردته واستحل قتله على ذلك من الخوارج ، ومن اعتقد فسقه أو ظلمه من الأمومية وبعض أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم ومن لم يعتقد إمامته ولا إمامة غيره فى زمانه ، أو جعل إمامته وإمامة غيره سواء مع اعتقاد فضله وسابقته . فهؤلاء الثلاثة حدثت بازاء تلك الثلاثة : فالغالية والرافضة والمفضـلة ، بازاء المكفرة والمفسقة والمتوقفة عن اختصاصه بالإمامة إذ ذاك .

ثم القائلون بأنه إمام منصوص عليه معصوم تفرقوا فى الإمامة بعده تفرقاً كثيراً مشهوراً فى كتب المقالات ، منهم الاثنا عشرية الذين يقولون بأن الإمامة انتقلت بالنص من واحد إلى واحد الى المنتظر محمد بن الحسن ، الذى يزعمون أنه دخل سرداب سامراء سنة ستين ومائتين وهو طفل له سنتان أو ثلاث ، وأكثر ما قيل خمس . ويزعمون مع ذلك أنه إمام معصوم ، يعلم كل شىء من أمر الدين ، ويجب الإيمان به على كل أحد ، ولا يصح إيمان أحد إلا بالإيمان به . ومع هذا فله اليوم أكثر من أربعمائة وأربعين سنة لم يعرف له عين ولا أثر ،ولا سمع له أحد بما يعتمد عليه من الخبر .

وأهل المعرفة بالنسب يقولون : إن الحسن بن على العسكرى

والده لم يكن له نسل ولا عقب ، واتفق العقلاء على أنه لم يدخل السرداب أحد ، وأجمع أهل العلم بالشريعة على ما دل عليه الكتاب والسنة أن هذا لو كان موجوداً لكان من أطفال المسلمين الذين يجب الحجر عليهم فى أنفسهم وأموالهم حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد : كما قال تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا » (١) .

وقد بسطنا القول فى بيان فساد هذا فى ذكر ما خاطبنا به الشيعة قبل هذا ، ثم كتابنا الكبير المسمى بمنهاج أهل السنة النبوية فى نقض كلام الشيع والقدرية .

ومن الرافضة من يزعم أن الإمام بعد على أو بعد الحسين هو ابن على محمد ابن الحنفية وهم الكيسانية ، ومنهم طوائف كثيرة ليس هذا موضعها ، إذ ليس فى نحل الأمة أكثر تفرقاً واختلافاً منهم ، فان أول من ابتدع مقالتهم كان منافقاً زنديقاً ، لم يكن مؤمنا ثم انتشرت فى أقوام لم يعرفوا أخبار المسلمين الأوائل ولم يقصدوا الزندقة .

والمقصود هنا أن هؤلاء هم أول من أظهر القول بأن فى المؤمنين من لا ذنب له كما قال هذا السائل ، وادعوا عصمة الأئمة

---

(١) سورة النساء : ٦ .

الاثنى عشر حتى عن الخطأ فى الاجتهاد ، وعن نسيان العلم ، وعن عدم معرفة شىء من العلم ، فقالوا أنهم يعلمون كل شىء ، وادعوا عصمتهم من صغير الذنوب وكبيرها وغير ذلك ، وادعوا ذلك فى الأنبياء أيضاً لأنهم أفضل من الأئمة .

ولم يقل هذا فى الأمة غيرهم على هذا الوجه . لكن ظهر فى صنفين من الأمة بعض بدعتهم : طائفة من النساك والعباد يزعمون فى بعض المشايخ أو فيمن يقولون أنه ولى الله أنه لا يذنب ، وربما عينوا بعض المشايخ وزعموا أنه لم يكن لأحدهم ذنب ، وربما قال بعضهم : النبى معصوم ، والولى محفوظ .

ومن غالية هؤلاء من يعتقد فى بعض المشايخ من الألهية والبنوة ما اعتقدته الغالية فى على ، ويزعم أن الشيخ يخلق ويرزق ويدخل من يشاء الجنة ومن يشاء النار ، ويعبده ويدعوه كما يعبد الله ، ويقول كل رزق لا يرزقنيه الشيخ فلان فانى لا أريده ، ويذبح الذبائح باسمه ، ويصلى ويسجد إلى جهة قبره ويستغيث به فى الحاجات كما يستغاث بالله تعالى .

فأما ضلال هذه الغالية فشرك واضح قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإنه لا تجوز عباده أحد دون الله ، ولا التوكل عليه والاستعانة به ، ودعاؤه ومسألته كما يدعى الله ويسأل الله .

قال تعالى : (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا • أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محـــذوراً) [١] • وقال تعالى : « قـــل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير * ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له » [٢] • وقال تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » [٣] • وقال تعالى : « أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون : قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض [٤] • وقال تعالى : « فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين [٥] • وقال تعالى : لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم انه من يشرك بالله فقدم حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » [٥] •

والمقصود هنا ذكر العصمة ، فقد أجمع جميع سلف المسلمين وأئمة الدين من جميع الطوائف أنه ليس بعد رسول الله ﷺ أحد

---

(١) سورة الاسراء : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة سبأ ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة البقرة : ٢٥٥ .
(٤) سورة الزمر : ٤٣ ، ٤٤ .
(٥) سورة الشعراء : ٢١٣ .
(٦) سورة المائدة : ٧٢ .

معصوم ولا محفوظ من الذنوب ولا من الخطايا ، بل من الناس من إذا أذنب استغفر وتاب ، وإذا أخطأ تبين له الحق فرجع إليه ، وليس هذا واجباً لأحد بعد رسول الله ﷺ ، بل يجوز أن يموت أفضل الناس بعد الأنبياء وله ذنب يغفره الله ، وقد خفى عليه من دقيق العلم مالم يعرفه . ولهذا اتفقوا على أنه ما من الناس أحد إلا يؤخذ من قوله ويترك ، إلا رسول الله ﷺ .

وذهب بعض الناس إلى أن قول أبى بكر وحده حجة وإن خالفه عمر ، ثم قول عمر حجة وإن خالفه عثمان وعلى . أما أئمة الإسلام فلا يقولون بهذا ، بل تنازعوا فيما إذا اتفق أبو بكر وعمر على قول ، هل يكون حجة ؟ على قولين هما روايتان عن أحمد والأظهر فى الموضعين أن ذلك حجة لقوله ﷺ : « اقتدوا بالذين من بعدى : أبى بكر وعمر » ، وقوله : إن يطع القوم أبا بكر وعمر يرشدوا » ، وقوله : « لو اتفقتما على شىء لم أخالفكما » وقوله . « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فان كل بدعة ضلالة » ، وقد قال : « الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تصير ملكا » . وقد كانت خلافة على تمام الثلاثين مع الأشهر التى تولاها الحسن رضى الله عنه .

واتفقوا على أنه ليس من شرط ولى الله أن لا يكون له ذنب أصلا ، بل أولياء الله تعالى هم الذين قال الله فيهم : « ألا إن

أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون » (١) .

ولا يخرجون عن التقوى بإتيان ذنب صغير لم يصروا عليه ، ولا باتيان ذنب كبير أو صغير اذا تابوا منه .

قال تعالى : « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون » (٢) .

وقال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما » (٣) .

وقال تعالى : « ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » (٤) .

---

(١) سورة يونس ٦٢ : ٦٣ .
(٢) سورة الزمر : ٣٣ ، ٣٥ .
(٣) سورة النساء : ٣١ .
(٤) سورة النجم : ٣١ ، ٣٢ .

وقال تعالى : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ❁ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا اليه » (١) •

والفريق الثانى قوم من أهل الكلام من المعتزلة ومن اتبعهم ، زعموا أن الأنبياء عليهم السلام معصومون مما يتاب منه ، وأن أحداً منهم لم يتب عن ذنب ، أو حرفوا نصوص الكتاب والسنة ، كعادة أهل الأهواء فى تحريف الكلم عن مواضعه ، والإلحاد فى أسماء الله وآياته •

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها ومن اتبعهم على ما أخبر الله به فى كتابه ، وما ثبت عن رسوله ، من توبة الأنبياء عليهم السلام من الذنوب التى تابوا منها ، وهذه التوبة رفع الله بها درجاتهم فان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين • وعصمتهم هى من أن يقروا على الذنوب والخطأ ، فان من سوى الأنبياء يجوز عليهم الذنب الخطأ من غير توبة ، والأنبياء عليهم السلام يستدركهم الله فيتوب عليهم ويبين لهم ، كما قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا اذا تمنى ألقى

---

(١) سورة التوبة : ١١٧ ، ١١٨ .

الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » (١) .

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم ونوح وداود وسليمان وموسى وغيرهم ، كما تلونا بعض ذلك فيما ذكرناه من توبة الأنبياء واستغفارهم ، كقوله : فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه)(٢).

وقول نوح : « رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » (٣) .

وقول ابراهيم : « ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٤) .

وقوله : «والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين»(٥).

وقوله سبحانه : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » (٦) .

---

(١) سورة الحج : ٥٢ ، ٥٣ .
(٢) سورة البقرة : ٣٧ .
(٣) سورة هود : ٤٧ .
(٤) سورة ابراهيم : ٤١ .
(٥) سورة الشعراء : ٨٢ .
(٦) سورة محمد : ١٩ .

وقال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين » (١) •

وقال تعالى : « واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب * إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق » الى قوله « وظن داود إنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » الى قوله : « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب » الآية (٢) •

ولما كان اليهود ضد النصارى حيث قتلوا الأنبياء وكذبوهم• جحدوا نبوة داود ، وهم لنبوة سليمان أجحد ، وزعموا أنهما كانا حكيمين ، وأن داود كان مسيحيا ، وقد نزه الله سليمان مما تلته الشياطين على ملكه مما اتبعه السحرة من الصائبة والمشركين ومن اتبعهم من أهل الكتاب والمنتسبين الى هذه الملة • والسامرة أعظم جحوداً ، لا يقرون إلا بنبوة موسى خاصة ، ويوشع بعده •

والله سبحانه قد هدى الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق

---

(١) سورة الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ •
(٢) سورة ص : ١٧ — ٣٥ •

باذنه ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، كما اختلفت الأمتان فى المسيح ، فقال تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون • ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه اذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون » (١) •

وكذلك المنحرفون من هذه الأمة قد اختلفوا فى على وغيره كما تقدم ، فتجد أحدهم يغلو فى الرجل العالم والعابد ، حتى يعتقد عصمته ، أو يجعله كالأنبياء أو فوقهم ، أو يجعل لهم حظا فى الإلهية • ونجد الآخر يقدح فى ذلك ، فربما كفره أو فسقه أو أخرجه عن أن يكون من أولياء الله الذين آمنوا وكانوا يتقون • فالأول يجعل ما صدر منه من اجتهاد وعمل صواباً وإن كان خطأ وذنباً ، والآخر يجعل صدور الذنب والخطأ منه مانعاً من ولايته ووجوب موالاته •

وكلا القولين خطأ موروث عن أهل الكتابين • كما قال ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه • قالوا : اليهود والنصارى قال : فمن ؟ ! » •

وقد ثبت فى صحيح البخارى ﷺ أنه قال فى أم القرآن

---

(١) سورة مريم : ٣٤ ، ٣٥ .

أنها أفضل سورة وأنه لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الزبور ولا فى القرآن مثلها ، وأنها السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أعطيه النبى ﷺ حيث قال تعالى : « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » (١) .

وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى يقول : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، فنصفها لى ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، فاذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله : حمدنى عبدى . فاذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى على عبدى . فاذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدنى عبدى . فاذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذه الآية بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل . فاذا قال اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، قال : فهؤلاء لعبدى ، ولعبدى ما سأل » (٢) .

وهذه البدع هى وغيرها من البدع لابد أن تنافى كمال الإيمان ، وتقدح فى بعض حقائقه ، فان رأس الاسلام شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . فلابد من إخلاص الدين لله ، حتى لا يكون فى القلب تأله لغير الله ، فمتى كان فى القلب تأله لغير الله فذاك شرك يقدح فى تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ،

(١) سورة الحجر : ٨٧ .
(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه مع خلاف فى اللفظ .

ولابد من الشهادة بأن محمداً رسول الله ، وذلك يتضمن تصديقه فى كل ما أخبر ، وطاعته فيما أمر به ، ومن ذلك الإيمان بأنه خاتم النبيين وأنه لا نبى بعده ، فمتى جعل لغيره نصيباً من خصائص الرسالة والنبوة كان فى ذلك نصيب من الإيمان بنبى بعده ، كالمؤمنين بنبوة مسيلمة والعنسى وغيرهما من المتنبئين الكذابين ، كما قال ﷺ : « إن بين يدى الساعة ثلاثين دجالين كذابين كلهم يزعم أنه رسول الله » .

فمن أوجب طاعة أحد غير رسول الله ﷺ فى كل ما يأمر به ، وأوجب تصديقه فى كل ما يخبر به ، وأثبت عصمته أو حفظه فى كل ما يأمر به ويخبر من الدين ـــ فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله والمضاهأة له فى خصائص الرسالة بحسب ذلك ، سواء جعل ذلك المضاهى لرسول الله ﷺ بعض الصحابة أو بعض القرابة أو بعض الأئمة والمشايخ أو الأمراء من الملوك وغيرهم .

وقد قال الله تعالى فى كتابه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » (١) .

فغاية المطاع باذن الله أن يكون من أولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم من العلماء والأمراء ومن يدخل فى ذلك من المشايخ

---

(١) سورة النساء : ٥٩ .

والملوك وكل متبوع ، فان الله تعالى أمر بطاعتهم مع طاعة رسوله ، كما قال : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فلم يقل : وأطيعوا أولى الأمر ، ليبين أن طاعتهم فيما كان طاعة للرسول أيضا ، إذ اندراج طاعة الرسول فى طاعة الله أمر معلوم ، فلـم يكن تكرير لفظ الطاعة فيه مؤذناً بالفـرق ، بخـلاف ما لو قيل : أطيعوا أولى الأمـر منكم ، فانه قد يوهم طاعة كل منهما على حياله .

وقـد ثبت عن النبى ﷺ فى الصحيح أنه قال : « إنمـا الطاعة فى المعروف » [١] ، وقال : « لا طاعة لمخلوق فى معصـية الخالق » [٢] . وقال : « على المرء المسلم الطاعة فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية ، فاذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » [٣] .

ولهذا قال سبحانه بعد ذلك : « فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خـير وأحسـن تأويلا »[٤] فلم يأمر عنـد التنازع إلا بالرد الى الله والرسول دون الرد الى أولى الأمر ، ولهذا كان أولو الأمـر اذا اجتمعوا لا يجتمعون على ضلالة ، فاذا تنازعوا فالرد الى كتاب الله وسنة رسوله لا الى غير ذلك من عالم أو أمير أو من يدخل فى ذلك

---

(١) جزء من حديث متفق عليه عن على رضى الله عنه .
(٢) أوردة التبريزى فى المشكاة وقال الشيخ الألبانى صحيح .
(٣) رواه البخارى عن ابن عمر .
(٤) سورة النساء : ٥٩ .

من المشايخ والملوك وغيرهم ، ولو كان غير الرسول معصوما أو محفوظاً فيما يأمر به ويخبر به لكان ممن يرد اليه مواقع النزاع ، أن يردوا ما تنازعوا فيه الى الإمام والقدوة الذى يقلدونه .

ومعلوم أن علماء الطوائف ومقتصديهم لا يرون هذا الرد واجباً على الإطلاق ، لكن قد يفعلون ذلك لأنه لا طريق لهم الى معرفة الحق واتباعه إلا ذلك لعجزهم عما سوى ذلك ، فيكونون معـذورين . وقـد يفعلون ذلك اتباعا لهواهم فى محبتهم لذلك الشخص وبغضهم لنظرائه فيكونون غير معذورين ، ولكن من اعتقد من هؤلاء فى متبوعه أنه معصـوم ، أو أنه محفوظ عن الذنوب والخطأ فى الاجتهاد ، فذلك مردود عليـه بلا نزاع بين أهـل العـلم والإيمان .

ولهذا إنما يقول ذلك غلاة الطوائف الذين يغلب عليهم اتباع الظن وما تهوى الأنفس ، وقد غلب على أحدهم جهله وظلمه . وكما أن الغلو فى غير الرسول ﷺ فيه قدح فى منصب الرسول وما خصه الله به ، وهو أحـد أصول الاسلام ، فكذلك الغلو فى غير الله فيه قدح فيما يجب لله من الألوهية وفيما يستحقه من صفاته . فمن غلا فى البشر أو غيرهم فجعلهم شركاء فى الألوهية أو الربوبية فقد عدل بربه وأشرك به وجعل له نداً .

ومن زعم أن الله ذم أحداً من البشر أو عاقبه على ما فعله ، ولم يكن ذلك ذنباً ، فقد قدح فيما أخبر الله به وما وجب له من

من حكمته وعدله • فالجاهل يريد تنزيه الصحابة أو العلماء أو المشايخ من شيء لا يضيرهم ولا يضرهم ثبوته فيقدح فى الرسول أو فى الله تعالى ، ويريد تنزيه الأنبياء عما لا يضرهم ثبوته ، بل هو رفع درجة لهم ، فيقدح فى الربوبية • فتدبر هذا فانه نافع •

والقائلون بعصمة الأنبياء من التوبة من الذنوب ليس لهم حجة من كتاب الله وسنة رسوله ، ولا لهم إمام من سلف الأمة وأئمتها وإنما مبدأ قولهم من أهل الأهواء كالروافض والمعتزلة ، وحجتهم آراء ضـــعيفة من جنس قول الذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم الذين قال الله فيهم : « ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد » (١) •

وعمدة من وافقهم من الفقهاء أن الاقتداء بالنبى ﷺ فى أفعاله مشروع ، ولولا ذلك ما جاز الاقتداء به • وهذا وضعيف ، فانه قد تقدم أنهم لا يقرون ، بل لابـــد من التوبة والبيان • والاقتداء إنما يكون بما استقر عليه الأمر ، فأما المنسوخ والمنهى عنه والمتوب منه فلا قدوة فيه بالاتفاق • فاذا كانت الأقوال المنسوخة لا قدوة فيها ، فالأفعال التى لم يقر عليها أولى بذلك •

وأما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة والجماعة القائلين بما دل عليه الكتاب والسنة من توبة الأنبياء من الذنوب ، فقـــد ذكرنا من آيات القرآن ما فيه دلالات على ذلك •

---

(١) سورة الحج : ٥٣ .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه كان يدعو : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، واسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جدى وهزلى ، وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى . أنت المتقــدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير » (١) .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه كان يقول فى اســتفتاح الصلاة : « اللهم أنت الملك لا شريك لك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعا فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق فانه لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها فانه لا يصرف عنى سيئها الا أنت » قال : ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله الا أنت » (٢) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يسكت بين التكبير والقراءة إسكاتة ، فقلت : بأبى وأمى يا رسول الله ، إسكاتك بين التكبير والقراءة ما تقول ؟ قال : « أقول : اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الدعوات ، ومسلم فى الذكر والدعاء .

(٢) رواه مسلم عن ابن أبى طالب رضى الله عنه فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

نقنى من الخطايا كما ينقى الثــوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسل خطاياى بالماء والثلج والبرد » (١) .

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لى » يتأول القرآن (٢) .

وفى الصحيح أيضا عن أبى هريرة قال : كان رسول الله ﷺ يقول فى سجوده : « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، وأوله وآخره ، وعلانيته وسره ، وقليله وكثيره » (٣) .

وقد تقدم قوله فى الحديث الصحيح : « إنى لأستغفر الله وأتوب اليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (٤) وقوله : « يا أيها الناس توبوا الى ربكم فانى أتوب اليه فى اليوم مائة مرة »(٥) ، وقوله : « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة » (٦) . وتقدم أيضا أنهم كانوا يعدون لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد يقول : « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب

---

(١) رواه البخارى فى الأذان ومسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصــلاة .

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) حديث رقم ٦٣٠٧ جـ ١١ فتح البارى والترمذى رقم ٣٢٥٩ وابن ماجه رقم ٣٨١٦ .

(٥) رواه مسلم .

(٦) رواه مسلم وأبو داود عن الأغر المزنى وليس له فى الكتب الستة الا هذا الحــديث .

الغفــور » مائة مرة (١) •

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ اذا قفل من غزو أو حج أو عمــرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ، ثم يقول : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمــد وهو على كل شيء قــدير • آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون ، صــدق الله وعــده ، ونصر عبــده ، وهزم الأحــزاب وحــده » (٢) •

وفى السنن عن على أنه أتى بدابة ليركبها ، فلما وضع رجله فى الركاب قال : « بسم الله » ، فلما استوى على ظهرها قال : « الحمد لله ، سبحان الذى سخر لنا هذا وماكنا له مقرنين ، وإنا الى ربنا لمنقلبون » ثم قال : « الحمد لله ـ سبحانك إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت » ثم ضحك ، فقيل : من أى شيء ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ صنع كما صنعت ثم ضــحك ، فقلت : من أى شيء ضــحكت يا رسول الله ؟ فقال : « إن ربك ليعجب من عبــده اذا قال رب اغفــر لى ذنوبى ؛ يقول : يعــلم أن الذنوب لا يغفرها أحــد غــيرى » (٣) •

تم بحمــد الله وتوفيقــه

---

(١) المســند طبعة المعــارف رقم ٤٧٢٦ وابو داود فى الوتر وابن ماجه فى الأدب •

(٢) رواه البخارى فى الدعوات ومسلم فى كتاب الحج •

(٣) رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح •